اللغة العالمية وموقف القرآن

بقلم محمد محمود عبد الرازق

ليس بكثير على عالم يتجه الى العالمية بخطى سريعة ان تكون له لغة واحدة للتفاهم .. قلنا ذلك . فقال احد الكتاب : لا .. « ان هذا التعبير لا يخلو من المبالغة ، ففي رأيي انه لن يتحقق حتى ولو بعد الف او مليون سنة كما يقول الباحث ، اذ ان اتفاق العالم على لغة واحدة امر متعذر يدل عليه قول الله سبحانه وتعالى « ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم » .

وفي مجال الرد على هذا الرفض ، لا ننكر بادىء بدء ، اننا نبالغ، ولا نراه امرا يسيرا ان يجتمع العالم على لغة واحدة .. انه امر «متعذر» دونه كثير من العقبات والجهد والسنين ، وكل كلمة سقناها في حديثنا السابق تحمل بين جنبيها هول السنين ، والجهد اضنى الجهد الذي على الاجيال بذله للوصول الى لغة عالمية موحدة ، لنقرأ معا : «وستتحقق هذه العالمية يوما في السياسة والاقتصاد كما تحققت في صمير النفوس الطيبة ، وسيلزم للتجارة والادارة ، لغة تقوى على النطق بها جميع الالسنة ، قل بعد الف سنة .. قل بعد مليون ! .. » . اليس في هذه الالاف المؤلفة مبالغة مبالغ فيها ؟ انها اقصى مايمكن ان نتصور من صور المبالغة عند تحديد المدة . الف .. او مليون ، كان على كاتبنا انتظارهما او نصفهما امد الله في عمره ـ ليعلن رفضه امام الاجيال المقبلة ، اما نحن فلا يشغل بالنا الان غير لغتنا القومية ، اللغة الموحدة التي لا تستعصي على كل الالسنة العربية ، وترفرف راياتها على شعاب وطني الكبير . ومن اجل هذا النصر استطردنا في الحديث عن العالمية .من اجل اللغة القومية الواحدة ، تحدثنا عن اللغة العالمية الواحدة ، لنثير نخوة رجالنا لذين تقعدهم اللامبالاة والانهيار والدعايات الفاشمة المخربة، والتفتت الذي عشناه سنين طويلة ، عن الصلابة والصمود والانتفاضة والتجمع وتأمين حياتنا وانتصاراتنا وادابنا بصبها في لغة واحدة، لا تتابى على اي لسان في هذه الارض الطاهرة التي تعيش الحياة في قارتين ماردتين ، عبر النهر والبحر وفي الغابات والصحراء . ان «العالم في طريقه للحكومة العالمية باقرب مما نتصور ، اويسير العالم الى التجمع وننزوي نحن في جحور التفتت !! .. » ان هذا هو السؤال الذي طرحناه على الضمائر العربية الحرة المتطورة ، وكانت الاجابة .. مستحيل .. « مستحيل ان نعود الى الجحور او نبعثر فوق الرمال . اننا ، وبحتمية تاريخية الى التجميع نسير ، ومن الناحية السياسية اعتبر التكتل في اطار القوميات بداية العالمية . قد يخالفني خلق كثير، ومهما بعدت شقة الخلاف بيننا ، فاظنهم لن يخالفوننا في ان التكتل في اطر القوميات يقرب بين لهجات الامة الواحدة ، الامر الذي يفرضه الاتصال بوسائله المتعددة . » .

ونحن لم نكتف بالمبالغة ، بل وضعنا ايدينا على الصخور التي تعترض طريق النهر ، اوضحنا العقبات التي يتعين اجتيازها اثناء التفكير في اللغة العالمية ، بل وقبل ان يتحول التفكير الخيالي .. او الحلم ، الى تفكير واقعي .اواداة للتنفيذ قبل ان نرسم الخطوط العريضة لتحقيق الحلم ، ستتوحد السياسة .. ويتوحد الاقتصاد .. وتتوحد الادارة . ستزال هذه الصخور الكبيرة وما يعلق بذيلها من حصى ورمال، ويعشش على سطحها من اعشاب وادران . والذي نحمده للعصر، محاولة سحقه هذه الصخور بقوة هرقلية آملة ، لا قوة شمشونية يائسة . فلا ينبغي ان ننظر الى الاتحادات والتكتلات سياسية كانت ام اقتصادية بعين الغضب ، بل يتعين الاطمئنان الى ظاهرة وجودها ، فمهما تنافرت ونشأت في مهدها عن نظرية قومية ضيقة لحماية نفسها ، او حضارية محضة للعمل على تحطيم غيرها او للسببين معا ـ كالسوق الاوروبية المشتركة التي كادت توجه لتخريب اقتصاديات بعض البلدان ، لولا يقظة الشعوب التي تحاول استخلاص النوايا الحسنة من النوايا الخبيثة ـ مهما تنافرت هذه التكتلات والاتحادات فمصيرها واحد .. التلاقي والتعاون بحكم المصلحة ذاتها ، وبحتمية التطور العالمي لصالح الانسان .. مآلها مهما حاولت العزلة والانفراد الى وحدة حقيقية صلبة صلدة تلف الارض كالارض ،وهكذا اللغات ، التي تنتهز هذه الفرصة لتؤكد سيرها في نفس الطريق . فاذا ما حاولت بعض اللغات العالمية الكبرى كسب اراض جديدة لها بالطرق المشروعة ، فلا يتعين ان ننظر الى هذا الامتداد بعين الحقد او الغضب، بل نحاول من جانبنا المساهمة بلغتنا الحية المتطورة لا الصدئة المتهالكة في هذه الحركة العالمية ،برفع لغتنا الى المستوى العالمي ومحاولة كسب اراض جديدة لها . ولنبدأ بأنفسنا ، بجمع العرب جميعا على لغة عربية واحدة .

حقيقة ان هناك تكتلات عسكرية او اقتصادية كحلف الاطلنطي واتفاقية الحصار الاقتصادي الذي فرضته امريكا وحلفاؤها على مصر عقب معركتها التحررية عام ١٩٥٦ . غايتها بث الخوف في الاوصال ، وسرقة البسمة من عيون الاطفال ،ولكن الست معي في ان هذه الاحلاف الخربة المخربة قد تهرأت ، واصبحت ككل حلف عدواني هشيما ستذروه الرياح اذا ما آذنت بالهبوب ؟ ان مثل هذه الاحلاف العدوانية كمثل الصحيفة التي كتبتها البيوتات القرشية الكبيرة ، لتجويع محمد واهله وفرض الذلة والعزلة عليهم ، مثلها كمثل هذه الصحيفة التي علقت على اسوار الكعبة عهد وميثاق .. لا زواج ولا بيع لبني هاشم ولا شراء منهم . وهكذا ردت الى محمد ابنته من بيت زوجها ، واستردت العشائر بناتها من بيوت الازواج الهاشميين وانتزعت الاطفال من احضان الامهات. وحرمت الاتصال والماء والزاد على عشيرة محمد حتى اضطروا الى الخروج لشعاب مكة تجنبا لاحقاد الملأ من قريش . مثل هذه الاحلاف كمثل هذه الصحيفة .. نقش على جلد .. او حبر على ورق ، يتزايد لها الحماس اياما ، ثم تغرق في عبثيتها ولا جدواها حتى تصبح امام الصمود خرمة بالية لا تقوم بمال ولا بنون ، فينهض رجل من هذه البيوت نفسها، من المخدوعين من هذه البيوت نفسها ، لتمزيقها ، والقذف بها في التيه. ان الانسان لا يلتف حول راية الا ابتغاء الخير ، فاذا ما انحرفت الراية عن الخير مزقها ، والراية المضللة لا تصمد صمود الانسان . والذين يحاولون فوقعة اللغة العربية على نفسها بحجة انها اللغة الشريفة.. لغة القرآن قوم مخطئون ، فمحافظة على القرآن لا تأتي بالعزلة والتقوقع بل تأتي بالقدرة على المرونة وعدم رهبة الاقتباس من اللغات الحية المعاشة. والا فقدت اللغة العربية اصالتها ، وبالتالي تفقد شخصيتها وقيمتها وتغرق في عبثيتها وضلالها فلا تقوم بمال ولا يحافظ عليها بنون حتى يلحقها نفس مصير اللغات الميتة .

والذي نريد ان نؤكده الان .. انه قبل التفكير في اللغة العالمية الواحدة ، ستكون هناك حكومة عالمية واحدة .. قبل القضاء على الحدود اللغوية بفك عقدة اللسان الاقليمي ، سيقضى على الحدود السياسية، وتحطم الحواجز الجمركية .

نحن بعي الصخور التي تعترض احلامنا ، لكن هذه الصخور الصماء مهما غالينا في ضخامتها وصلابتها ، لانقدر على نفي الحلم ، ولا تستطيع ان توقف تياره ، وسيظل الحلم سائرا في طريقه من ظلمة الليل الى وضح النهار . ولو وقف كاتبنا عند حد المبالغة لما سقنا هذا الحديث ، او لاكتفينا بهذا القدر منه . لكن الكاتب لا يقصد بالمبالغة ، وانما يريد بها الاستحالة ، يدلنا على ذلك قوله « في رأيي انه لن يتحقق ... » فضلا عن استشهاده بالاية الكريمة التي اراد ان يطوقنا بها كما تطوق « كسارة البندق » الضحية ، وهنا يرفع القلم سنانه للدفاع عن نفسه .. عن احلامه وامانيه ، وسيظل يدافع عن حقه في الحلم كحقه في الحياة ، لانه يؤمن ــ كما يقول توفيق الحكيم ــ بان ما بين الحقيقة والخيال قطرة ... وربما لا يوجد شيء بينهما على الاطلاق ... والانتقال بينهما عادي جدا ... وربما كان شيئا واحدا

ولكن ما كنه هذه الاستحالة ؟.. وما يراد بالمستحيل ؟؟ ..

قسم الاصوليون المستحيل الى قسمين : مستحيل لذاته، ومستحيل لغيره . والمقصود بالمستحيل لذاته ، ما لا يتصور العقل وجوده فغير متصور ــ لا عقلا ولا عادة ــ ان يكون الشيء ابيض واسود في نفس الوقت ، او ان يكون متحركا وساكنا في آن واحد . وليست اللغة العالمية جمعا بين ضدين ، بل هي في الواقع توليفة متجانسة متقاربة، وبهذا نخرج من نطاق الاستحالة بالعقل ، ليدخل في نطاق الاستحالة بالعادة .. المستحيل لغيره . فاللغة العالمية غير مقصورة عادة ، وان كانت متصورة عقلا ، وبمكنة العقل تصور وجود هذا المستحيل ، وان لم تجر به العادة ، كمشي المقعد ، وقراءة الضرير من الصحيفة . واللغة العالمية ..

اتفقنا .. ولا نطالب الان باكثر من هذا .. وعلى الزمن ان يذيب هذه الاستحالة بالعادة ، كما اذاب اخوات لها من قبل . اكان من المقصود عادة ان يطير الانسان .. وان يخترق اجواز الفضاء ليعانق الكواكب الاخرى ؟ .. مستحيل ، اليس كذلك ؟ ولكن الاستحالة بالعادة لم تمنع الانسان من الحلم ، حتى اذاب الاستحالة .. بالعقل . حلم بان يطير فصنع لنفسه جناحي نسر ، وقذف بجسمه في الهواء فهوى ، لكن غيره واصلوا المحاولة .. بل وواصلوا الحلم بسفينة فضاء ، تصعد في السماء لمقابلة الله .. فكانت « مراكب الشمس » .. وكانت الاساطير التي تحكي ان الانسان من شوقه الى منازلة الرب اتى بصندوق وربط به اربعة نسور وبقطعة من اللحم علقها في عصا طويلة ، وكلما حاولت النسور الوصول الى قطعة اللحم رفع يده بالعصا قليلا الى اعلى .. فاعلى .. فاعلى .. حتى غاب في ظلمات السماء ففزعت النسور وهوت فهوى .. وتحكي الاساطير عن مشاهداته في الفضاء شيئا قريب الشبه بما اتانا به رواد الفضاء الاول . لكن فشل هذه المحاولات الاولى لم يقعد المفكرين عن مواصلة الحلم .. وتطور الحلم على ايدي الروائيين العلميين، فكانت القصص الرائعة التي كتبها ويلز وجول فيرن وزيولكوفسكي عن الصواريخ والاطباق الطائرة وسفن الفضاء . حتى اذا ما غمروا الدنيا بالاحلام سهل الانتقال الى الواقع .

كانت الرحلة الى الكواكب البعيدة .. بعيدة ، وفجاة .. كما يحدث في القصص عادة ، اعترتنا الدهشة ونحن نتابع اخبار جاجارين ودورانه حول الارض ، قمة الطيران في عصرنا الحديث .

لا بد من الحلم اولا .. ثم الحقيقة . ولا يجوز لقوة مهما بلغت ، ان تصادر احلامنا وامانينا ، بل وعلى جميع القوى الا تفتر بقوتها ووهن الاحلام ففي البدء كانت في ضمير الغيب حلما .

توفيق الحكيم يحلم الان بالغاء الجوع .. ان يجد كل شخص القهوة واللبن في الانابيب ، كما يجد الماء . ما وجه الغرابة في ذلك؟ .. حقيقة ان هذه « الرحلة الى الغد » غير متصورة عادة ، وكذلك رحلة « الطعام لكل فم» فهل نقاوم هذه الرحلة ، ام نشد على يد الرجل الذي يمهد لنا الطريق ؟ من جانبنا آمنا بهذه الرحلة ، وقلنا في مقالنا «معقولية الطعام لكل فم» انه ، وان كان يحلم لنا احلاما سعيدة فانما « يحملنا معه في سبحات الغفوات الى عوالم بعيدة .. لنصنع الجنة بايدينا ، لنخلق جنة حقيقية ، دون انتظار لها في عالم اخر ، نصنعها هنا ..على ارضنا بسواعدنا وعزمنا ، نحيل الانهار الى عسل وخمر ، والبنات اللاتي يلطخهن طين الحقول ، وعادم المصانع الى حور عين ، امهاتنا وبناتنا هن الحور العين بحسب المآل والامال » بل وناشدنا جميع الكتاب والمفكرين لمواصلة الرحلة معه .

حلمت الانسانية بالطيران فطارت ، وتحلم بالغاء الجوع وبسفك دم غوله ، وستحلم باللغة الواحدة ليستجيب القدر .

علينا الان ان ننظر في خشوع وخضوع لهذه الاية الكريمة من سورة الروم ، التي ختم بها الكاتب حديثه وكأنه يقول : لاتجادل .. « ومن اياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم » لا تجادل فلا مفر .. اللسان في اللغة هو اللغة ، مجازا اصبح حقيقة ، حتى ان بعض المفسرين لم يحاولوا تغيير اللفظ في تفسراتهم لشيوعه ووضوحه، وهذا محمد فريد وجدي يقول في تفسيرها . « ومن اياته الكبرى خلق السموات والارض من العدم ، على ما فيها من ابداع وجمال وعظمة وجلال، واختلاف السنتكم والوانكم وما يتبع ذلك من تخالفكم في طبائعكم وعاداتكم » .

وهذا هو كل ما يستطيع الرافضون ان يواجهونا به ، ولكن التفكير عبادة ، والفهم ايضا عبادة كما ان تلاوة القرآن وكتابته وحفظه عبادة . فلنخض معا تجربة التفكير والفهم ! .

لن نقول الان ان القرآن الكريم يقرر واقعا معاشا والواقع المعاش في تطور مستمر ، والاسلام لاينكر التطور لانه في ذاته تطور ، انتشال للانسان من وهدة الجاهلية الى نور العقلانية ، والرسول صلى الله عليه وسلم حض على طلب العلم ولو في الصين .. ولو في اخر الدنيا ، وقال صلوات الله عليه « من تعلم لغة قوم امن شرهم » وهنا حث على تعلم اللغات ، ولا يخفى مدى التاثير والتاثر الذي ينشأ بين اللغات المتجاورة على الالسنة . ثم ان استعمال صيغة الجمع مع هذا الحديث توصلنا الى نتائج هامة « من تعلم لغات الاقوام امن شرهم» ولما كان هذا الامر عسيرا بالنسبة للشخص الواحد ، ومن العقم المناداة الجماهيرية

صدر حديثا :

كلمات فلسطينية

اول ديوان للشاعر الطليعي

حسن النجمي

منشورات دار الاداب

الثمن ٢٠٠ ق. ل.

به ، فان التواضع على لغة واحدة اجدى وايسر ، وبذلك نقضي على محاولات الشر ، لتسود الاخوة العالمية ، والمحبة المثرية ، التي تبناها الاسلام وبلورها في شعاره الموجز الكبير « يأيها الناس ... تعارفوا ». لن نقول هذا وغيره الان .. والان فقط، فقبله يتحتم تفهم روح الرسالة المحمدية . فما الذي جاء به محمد الرسول ؟

جاء محمد بنظرة شاملة كاملة لله والانسان ، دعا الى توحيد الله، وتحرير الانسان .. وليس في مكة وحدها يحيا الانسان ، وليس في مكة وحدها يستغل ويسرق وتهدر ادميته ، في مكة يقعي الانسان تحت سيطرة الاصنام والتجار المرابين ، وفي بلاد الفرس يسام العذاب على ايدي آلهة لا ترحم ضعفة وخصومه ، وتمتهن كرامته على ايدي كهنة يتاجرون في الدين وينحرفون به عن الهدى ، فينزعون العروس من حضن رجلها ، ليباركوها قبل دخوله بها ، اسبوعا او اسبوعين بالتناوب بينهما، والعروس الضعيفة الساذجة تتلقى البركة من عباد الجنس في استسلام غريب ، واكلة لحوم البشر ينهشون جسدها في وحشية مقززة . وفي الشام .. البلد المسيحية المؤمنة الموحدة ، تنحدر سلطة الرب الى اعتاب الكهان ، ليصبح الاعتراف الذي يكفر به المخطىء عن خطيئته لابتزاز المال واجتناء المتاع . اما ان يدفع المخطىء وترضخ المخطئة ، او يفشي السر على العالمين . وفي مصر .. بلد الشهداء الاول ، الذين ذاقوا مرارة الشي في الزيت المغلي فاضحوا رموزا للكفاح والتضحية حتى الموت ، في هذا الوادي المسيحي الاخضر تقف استاذة جميلة شابة بجامعة الاسكندرية ، حاضرة الكنيسة الارثوذكسية الاولى ، تنادي بتحرير الانسان من وساطة الكهنة ، فيعترضون طريقها بوسائلهم الدنيئة، محاولين النيل من عفتها باطلاق الشائعات بين العامة ، لكن الهامات ظلت ترنو اليها باكبار ، وتنحني لها في تقدير واخلاص ، فقتلوها .. قتلها الكهان غيلة ..

وانتفض رجل من الصحراء ، فاحدثت انتفاضته دويا هائلا في المنطقة كلها، انتفض محمد ينادي بتوحيد الله ، فلا يعقل ان تكون هناك آلهة مشتركة في الملك ، تتحكم في مصائر البشر ، بل رب واحد احد ، لم يلد ولم يولد، اله منزه عن الشبيه فليس كمثله شيء ، منزه عن الحلول في مخلوقاته ، فليس الشمس ولا القمر ولا الانصاب ولا الانسان، هو الاول والاخر والظاهر والباطن .. واليه ترجعون وعليه تتوكلون ، فلا اولياء مقربين ولا كهان ولا قباب ولا هياكل . وبهذه النظرة الشمولية الكاملة تحرر الانسان من ظلم الالهة المتعددة ، وانقذه محمد من تشتت الفكر وتبعثر الوجدان ، وارتفع بالله والانسان عن وساطة الكهان والقساوسة والقديسين واولياء الله الصالحين، وضرورة المعابد والهياكل والاضرحة لاقامة الشعائر الدينية. فاذا ما وقر في اذهاننا أن الله غني عن العالمين ، بدا لنا الصرح الشامخ الذي بناه محمد من اجل الانسان . وهذا هو انسان محمد يتبوأ مكانه تحت الشمس ناظرا اليها كآية من ايات الله ليس اكثر . مطمئنا الى عدالة الرب ورحمته ، فالجميع امامه سواء . وما دام العبيد والسادة متساوين امام العدالة الالهية ، فلم التنافر والتناحر والسيادة والسلطان ، لم لا يسود الحب والاخاء بين الناس ؟ . هكذا جاء محمد للعالم اجمع برسالة « عالمية » قوامها التآخي والمساواة والتوحيد ، حاملا للبشرية مشعل الخلاص ، منيرا للاجيال طريق الهداية ، وباعلى صوته يؤذن في الناس :

يا ايها الناس ... تعارفوا ..

يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ..

يا ايها الناس تحابوا وتعاطفوا . يا ايها الناس في جميع انحاء العالم ، اتحدوا ..

على هذا المستوى العالمي نسير ، وبهذه الروح العالمية نهتدي، ومن غير المعقول ان يحطم محمد الحصار القبلي المغلق ، ويقضي على خرافة الشعوب المختارة ، ثم يقف ضد توحيد الكلمة ، وكثير على رسالة تدعو الى توحيد ربنا المعبود الا تبارك توحيد الكلمة المتداولة ، كأمان من العجز والشر وفق فقهنا للحديث الشريف . ان المرونة من اهم خصائص الاسلوب القرآني .. مرونة المعاني والمباني ، وقد اتفق بعض الكتاب على انها صفة الابدية ، التي تؤكد خلود القرآن دون غيره من الكتب، كتب لم تصمد ولا تصمد امام المد التطوري وما يسوقه من انقلابات علمية وتحولات في المعارف البشرية . وهذا هو احمد حسين يضرب الامثال للناس في كتابه « في الايمان والاسلام » فيقول « العالم الاسلامي القديم كان لا يفهم من هذه الاية الا ظاهرها اللفظي » خلق الانسان من علق » فيقول في تفسيرها « العلق جمع علقة » ثم ينتقل سريعا الى غيرها من الايات ... وشبيه بهذه الاية اية في نفس موضوع الحياة لم يدرك الاقدمون معناها على حقيقته فكانوا يفسرونها حسبما يتفق مع عقولهم وافكارهم حتى اذا كان العلم الحديث جلاها لنا واظهر سرها ، وهي قول القرآن « وارسلنا الرياح لواقح » فما كان البشر يعرفون قبل عصور متاخرة جدا أن النبات كائن كالانسان والحيوان وانه يتألف من ذكر وانثى ، وانه يتلاقح كما يتلاقح بقية الاحياء وان الرياح في كثير من الاحيان هي واسطة هذا التلاقح . وهكذا تشرق آيات القرآن وتضيء بانعكاس اشعة العلم الحديث عليها » . ويكثر استعمال القرآن للصيغ المجازية في الامور القابلة للتطور . « ومن اياته خلق السماوات والارض ، واختلاف ... الوانكم » استعملت الالفاظ هنا بمعناها اللغوي، اما حين التعرض للغة ، فلا بد من استعمال التعبير المجازي «السنتكم» وكما يراد باللسان اللغة ، يراد به ايضا اللهجة . واذا كان المراد من الالسنة في هذه الاية ، هو اختلاف اللغات واللهجات ، فسيقتصر المعنى بعد ذلك على اللهجات ، اذا كان عالمنا اليوم يخوض في بحار من اللغات المتلاطمة المتباينة ، ففي الغد سمتمزج هذه اللغات وتتحول الى لهجات متباعدة ، فمتقاربة . وعلى وعي بهذا المفهوم العالمي ، خاض المسلمون الاوائل تجربتهم الى اللغة العالمية ، ومهدوا لها بمجهود هائل يحمده لهم تاريخ اللغات المقارن اذا ما انصف المؤرخون وابتعدوا عن الهوى لوجه العلم . وقبل ان نواصل مسيرنا مع رحلتهم الرائدة . علينا ان نلقي نظرة سريعة على موقف المفكرين والكتاب المنادين باللغة العالمية الواحدة في عصرنا الحاضر ، فهناك كثير من الخيرين الذين تسع قلوبهم العالم كله، تعتريهم الدهشة لالاف من اللغات تلوكها الالسن في عالم واحد ، يسكنه انسان واحد تطورت به البهيمية الاولى الى السماوات العلى ، وتقدمت به حياة التفرد والوحشية الى عالم كله وطنه ، وخلق كلهم عشيرته ، في الصين والهند وجبال الجزائر وحقول السكر الكوبية وبلاد الابنوس. من هؤلاء الخيرين من خطط لهذه اللغة الواحدة منذ الان ، قادتهم حساسيتهم الى استعجال التطور ومحاولة القفز الى العالم الجديد .

شاب هادىء الطبع ، سمح الخلق ، يهيم بدراسة اللغات ويهمل المقررات الدراسية ، ـ اوهكذا خيل الوهم لوالده لا ادري ـ ورأى الوالد ان حجرة ولده قد غصت بكتب اللغات المختلفة وكانها مكتبة المترجمين بمقر هيئة الامم . فينبه الى ضرورة ترك هذا المجمع اللغوي العالمي والاهتمام بدروسه ولكن الابن لا يمتثل للامر ، فيقوم الاب الحريص على مصلحة ولده الى الكتب في ثورة عارمة ويجمعها وسط الحجرة ويشعل فيها النيران . وكانت السنة اللهب تتمايل سكرى بعد ان كادت تنتهي من التهام هذه الوجبة العالمية ، حينما عاد الابن من نزهته القصيرة فكاد يلقي بنفسه الى النار ليشارك كتبه مصيرها ، لكن النار الواهنة تلفظ انفاسها الاخيرة فيظل يرنو الى الالسنة الخابية في اسى ويحفن حفنة من الرماد الساخن متاملا اياها بين يديه ، تاملها طويلا وفجاة اكتشف ان النيران قد اتت بمعجزة كبرى ، ان هذه الحفنة من الرماد مزيج من كل اللغات ، مرحى .. لقد خلقت النيران اللغة الواحدة ، وفي لحظة صفاء ذهني والرماد لناعم الرقيق في يده كانت الاسئلة تتزاحم في رأسه ، لماذا لا يقوم بالتخطيط للفكرة !! لماذا لا ينفجر بركان عالمي يطيح بكل اللغات من اجل اللغة الواحدة ؟!! .وقام من فوره يخطط لهذه اللغة ، واعتمد في جمع شتاتها على مختلف اللغات الحية ، ليسهل اتفاق الناس عليها .

ومفكرون غيره قاموا بنفس التجربة . وان اختلفت التجارب في

التفاصيل ، فقد اتحدت في شرف الغرض . وفي التخطيط من اجله في حجرة مغلقة .

ولكن هذا ليس طريقنا، لاننا لا نؤمن بالجبر ، ونشك في جدية المشروعات التي تأتي من اعلى ، دون ان تلهبها الضرورة والحماس الجماهيري . والتطور وحده كفيل بقيادتنا الى الحلم بعد ازاحة كل الصخور المعوقة . ان هذه اللغة ليست لغة مجامع ومحافل – كما يعتقد المحفل الماسوني مثلا – ولكنها لغة جماهيرية حية ستفرضها الحاجة على السنة الجموع اولا . ليقوم المفكرون والنحاة بتنسيقها ووضع القواعد لها ثانيا . ان الماء لا ينزل من السماء الا لان بحارا ومحيطات تغمر الارض اهدت السماءشحنة منها ، فعرفت الجميلواعادتها قطرات ، والتفاحة الجميلة لا تقطف من اعلى الشجرة الا لان جذورا سفلية تضرب اعماق الارض لتمدها بماء الحياة فتجني الشجرة ازهارها وثمارها ، فاذا ما سقطت احدى هذه الثمار واختلطت باديم الارض ، فانما ترد الى باريها بعض ما منحها من حياة ، وتجدد في ذات الوقت حياتها . وكذلك المفكرونلا يخصبون الا لان الجماهير بكدها وفاعليتها تهديهم الخصب . والمفكر الذي لا يهتدي بجمهوره مفكر عقيم مآله الى الهجر . وما يجتمع الجمهور على باطل، لان الجمهور يفكر ببطنهوعقله وقلبه معا . ومن الخير كل الخير تتبع تحركاته والانبثاق منها . والا كان مصيرنا الاهمال او المقاومة . ولم تنشأ الضرورة التي تؤكد الاقتناع بعد .

زيادة في الايضاح ، لنأخذ مثلا من المحيط العمالي : المهندس فريدريك تايلر يسعى الى زيادة الانتاج وزيادة اجور العمال ،يسعى الى خدمة الاقتصاد الوطني والعمال في نفس الوقت . فينادي بترشيد العمل . يلاحظ ان العمل الواحد يمكن اداؤه بطرق مختلفة ولكنطريقة مثلى تستطيع اتمام نفس العمل في اقصر وقت ممكن ، ويمكن اكتشاف هذه الطريقة بدراسة حركات العاملوتجزئتها الى ابسط عناصرها ، وقياس مدة ادائها بالكرونومتر ، لاستبعاد الحركات غير المجديةوالاقتصار على الحركات الضرورية . وحاولت بعض المصانع الامريكية تطبيق هذه النظرية فهبت النقابات العمالية في وجه رأس المال تطالبه باسمالانسانية ازاحة هذا الحمل الجديد عن كاهلها ، لانه فضلا عن ارهاق العماليؤدي الى اشاعة البطالة باستغناء المصانع عن بعض العمال بعد ضغط الوقت.

وفي روسيا .. نبعت الفكرة من وسط العمال ، أليكس استخانوف العامل بمنجم الفحم ابتكر طريقة جديدة لتقطيع الفحم بترشيد الحركات وتركيز الاهتمام ، وكان حماس العمال الروس لهذه الطريقة الجديدة فائقا ، لانها لم تفرض عليهم من الادارة ولم يبتكرها رجل من رجال الصوامع ، بل عامل خرجمنبينهم،يحرص على الثروة الوطنية والرفاهية العمالية ، « وبهذا استطاع الاتحاد السوفياتي زيادة الكفاية الانتاجية للعمل باستخدام هذه الطريقة دون اثارة العمال مستعينا بوسيلةاشباع غريزة اثبات الذات في نفوس العمال » كما قال الدكتور محمد حلمي مراد في كتابه اصول الاقتصاد . ولا ننكر اهمية هذا العامل النفسي ، لكن هناك عوامل اخرى تشاركه النجاح اهمها ضرورة البناء القومي التي الهبت حماس العمال في عهد ستالين فقبلوا التضحية راضين ، وكوفئوا عليها بزيادة الاجور . وتخفيض ساعات العمل ايضا في عهد خروشوف اما في المجتمع الرأسمالي فليس ثمة ضرورة تدعو الى قبول هذه التضحية ، ان وفرة الانتاج يتبعها تخلخل في العمالة وانتشار البطالة عادة ، والفائض يعود الى بطونالمستغلين ، اما المجتمعالاشتراكي فلا يعرف البطالة ، والانسان من المهد الى اللحد في كفالة الدولة .

وكذلك اللغة لا بد ان تفرضها ضرورة ، ويزداد الايمان بها.. تقتنع الجماهير بحتميتها لصالحهم . وواجبنا الان يقتصر على مداومة الحلم، والتمهيد له في نفوس الجماهير ، مع اثراء لغتنا ومتابعة تطور اللغات العالمية ، والاستفادة من ظاهرة توسعها وتشذيبها .

قديما ، سقطت الامبراطورية الرومانية على ايديالقبائلالجرمانية، ولم تكن هذه القبائل تشعر بالولاء للغة اللاتينية ، ولا بيد اوربا وقتها القدرة على التمسك بها ، الهيئة الوحيدة القادرة ، هي الكنيسة وما لها من سلطان روحي ، لكن الكنيسة التي تبنت هذه اللغة لارتباطها بارث الامبراطورية تسامت في عليائها ولم تنزل الى الشعب الا منأجل متاعها ، فاحتفظت بهذه اللغة لنفسها ، وكأنها ارادت ان تكون لها لغة الكهانة ، بما فيها من غرابة تفعل فعل السحر ، لتؤثر بها في الناس وكأنها لغة الله . وفي نفس الوقت كانت القبائل الجرمانية قد دخلت بلهجاتها وسط الناس ، فخارت قوى اللغة اللاتينية وان استفادتمنها الشعوب الاوروبية في تكوين لغاتها الرومانية المتناثرة على تفاوت مقدار الاستفادة ومضت قرون ، حتى استطاعت هذه اللغات أن تكون لها ادابها الخاصة بها المعبرة عن وجدانات شعوبها . كما فعل تشوسر في انجلترا ، ودانتي في فرنسا .

لقد تبعثرت اللغة اللاتينية لعدم قدرتها على الصمود في عصور التفكك والانحلال ، حيث تجمد الاوروبيون في مقاطعاتهم ، وباءتمحاولات اذابة الجليد القائم بين هذه المقاطعات بالفشل ، بل واستمرتعصور التدهور تنخر كالسوس في الاجسام ، حتى كان بعض الملوك والاباطرة يتنازلون عن سلطانهم طواعية ، ويمنحون الولايات استقلالا ، بل ويعطون بعض الاشراف ضياعا للاستئثار بالسلطة فيها بحجة الدفاع عنها ضد غزوات النورمانديين وغيرهم من البرابرة ! كما فعل حفدة شارلمان الضعفاء – ويتابع التاريخ سيره لنرى نابليون يدخل الولايات الالمانية فيفاجأ بحوالي ٤٠٠ ولاية ، فيبذل الجهد اضنى الجهد لادماجها في ٣٩ ولاية . ثم في انشاء اتحاد للولايات الغربية اطلق عليه اسم « اتحاد الرين » وما زالت المانياحتى الان تعاني من تباين اللهجات فيها . واذا كانت الكنيسة الغربية ما زالت تحتفظ باللاتينية ، فقد اصبحت لغة دينية ، يطلق لها البخور ، وترتل بها التراتيل ، لم تستطع أن تنزل من عليائها لتشارك الشعوب حياتها، ولا تريد لها النزول .. البقاء ، بعد ان انعطفت الشعوب الغربية مع لغاتها الجديدة ، فليسمقصدنا التعصب الاعمى للغة من اللغات ، بقدر ما هو التعصبلمصير الانسان ، لنحاول احياء لغة ميتة ، كما فعلتاسرائيل بالعبرية ، ليكتمل لها المثالي الخرافي الذي تحلم به « شعب مختار » يتكلم « اللغة العبرية » في « ارض الميعاد » لنيعمينا التعصب للتمسك بالخرافات ، فنحنلا نسعى الا الى تقويم اللغات الحية ، وتطويعها لتستطيع اداء رسالتها كاملة ، نحو انسانها ونحو الانسان العالمي .

ومن المستبعد ان تحدث مثل هذه النكسة اللاتينية في عصرنا الحاضر . كل ما يمكن ان يجري الان ، هو ان تموت بعض اللغات التي يعلوها الصدأ ، ولا تصمد امام التطور ، لعيب في ذاتها يمنعها من التجدد ، كفقدانها عنصر المرونة مثلا ، او عيب في اهلها يقعدهم عن النهوض بها ، كتقاعدهم عن التجديد بحجة المحافظة على اللغة القديمة الشريفة ، وتبعثرهم في دول ودويلات صغيرة منعزلة !

وفي الوقت الذي كانت تعيشهاوروبا ضياعا ، هبت في الشرقامة فتية تلتقط المشعل الحضاري من ايدي المتقاعسين وتمزجه بروحها ودمها ، وتواصل سعيها في طريق الحياة ، لتوكيد وحدة هذه الارض التي اصطلح على تسميتها بالشرق الاوسط . وساعد على نجاحها بسطة

منشورات « دار الاداب »

تطلب في القاهرة

من

مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب

(سليمان باشا سابقا)

في الارض ، واعتدال في الجو ، وعاطفة مشرقة في الانسان ، حملتهعلى ان يقطع الآلاف من الاميال سيرا على الاقدام ، او حملا على ضامر ، للتجارة والزيارة وخوف الظلم ، فتقارب الاهل ، وتقاربت اللغات بتقارب الاهل . خرجت طلائع ابية من وسط الصحراء العربية تخطو خطوة اخرى في سبيل التقارب المتفاعل منذ الابد ، فكانت خطواتها طفرات ثورية مجيدة ، استطاعت بدواب الحمل البطيئة التي جمدتها الثلوج الاوروبية ان تلغي الحدود ، وبمشاركة المركب الشراعية الصغيرة ان تردم البحار ، فاحالت البحر الاحمر الى بحيرة عربية ، وكادت تجعل من اخيه الابيض شريكا في العروبة كله . وفي مسيرها هذا وبالضرورة ، طرقت اللغة ابواب العالمية طرقات قوية منتظمة ، فتحولت بعض اللغات الى مجرد لهجات في اللغة الجامعة ، واستفادت من رقي العربية بعض اللغات الاخرى المتأبية على الاندماج لظروف خاصة بها ، وبأهلها ، او بنفول الطلائع العربية واستقرارها في بلدانها ، وكان الزمن كفيلا باتمام الوحدة لولا التمزق الذي اوقف التطور اللغوي في هذه المنطقة الى حين . استعانت هذه اللغات بالابجدية العربية وبقواعدها واساليبها ومعجم مفرداتها كالفارسية والتركية والكردية والمالطية، الامر الذي يدعونا الى تسمية هذه اللغات « باللغات الاسلامية » ونظرةواحدة الى معجم العربية ومعجم هذه اللغات الذي كان « للدعوة الاسلامية » فضل اشتراكها كفيل باقرار هذه التسمية .

وقد يظن البعض ان العربية اكتفت بالتأثير دون التأثر ، وهذا ظن خاطىء فاللغة الحية لا تخجل من التأثر كما لا تخجل من التأثير ، وهكذا اقتبست العربية المرنة المتطورة كثيرا من الفاظ اللغات المعايشة لها . وساوا اللغويين ينبئون بانهم كثيرا ما وقفوا امام اللفظ المشترك حائرين لا يدرون الى اي معجم ينتسب .

تجربة رائدة .. تسوقنا سوقا عنيفا الى السير في طريق العالمية .. لتذوب اللغات ، ثم تذوب اللهجات ، ولا يبقى غير اختلاف الالسنة الذي تفرضه الثقافة والحالة النفسية والصحية .

ولكن .. هل تقوى العربية على مواصلة السير ؟؟ .

هل العربية لغة حية مرنة ، تقفبجوار اللغات العالمية الكبرى في سبيل الوصول معها الى اللغة الجامعة ؟ ..

سؤال ارى من واجبنا مواجهته بصراحة اكثر .. وجرأة اكبر، ولو جاءت النتيجة في غير صالحنا .. لنرى على اي ارض نضع اقدامنا ، وفي اي طريق نسير .. (١) .

حلوان — محمد محمود عبد الرازق

---

(١) في العدد (٧٨) الصادر في ١٤ ـ ١ ـ ١٩٦٥ من مجلة الرسالة قدم الاستاذ محمد العواني عرضا لمقالنا « نحو لغة عربية واحدة » ـ يناير ١٩٦٥ من الاداب ـ استنكر فيه دعوتنا الى اللغة العالمية وطلب توضيحا « لتيسير النحو وتيسير الكتابة » واعتقد ان في مقالنا هذا بيانا كافيا لوجهة نظرنا بالنسبة للعالمية ، وارجو ان نلتقي مع الكاتب قريبا لتيسير النحو وتيسير الكتابة .

وفي العدد (٨٠) الصادر في ٢٦ ـ ١ ـ ١٩٦٥ من مجلة الثقافة ناقش الاستاذ مصطفى فودة الاراء التي وردت بمقالنا السابق ولم يوافقنا الا على القيام بثورة جبارة لمحو الامية في البلاد العربية جمعاء « ومن هذا الرأي الاخير يكون حل المشكلة في نظرنا » والحديث مع الاستاذ مصطفى حديث يطول ، ونأمل ان نلتقي معه كثيرا في هذه الدراسة .

وفي عدد فبراير عام ١٩٦٥ من الاداب كلمة عطف قصيرة عاب فيها الاستاذ فاروق خورشيد علينا تناول القضية بالحماس ، « وعلى قدر شرف القضية اضاعها الحماس » ونحن اذ نتفق معه على ضرورة التزام الموضوعية ، لا نوافق على نفي الحماس ، فعلى قدر شرف القضية ـ في نظرنا ـ يكون الحماس . وان كان قد سبح لهذا اللفظ مفهوم نقدي يراد به الحيدة عن الموضوعية ، ففي مجال دلائل الالفاظ نستبدل به الحرارة والاخلاص .

٤٠٤٠

المقبرة

« زرت قبر السياب فلم اجد سوى كومة من التراب ينتصب عليها اسمه .. »

***

مبحر في عتمة الليل .. وحيد في سكون المقبره
خائف .. مرتجف الخطوة .. مشلول الشفاه
عبثا تبحث يا ضائع في بحر المتاه
كل ما حولك سر .. وقبور في المدى منتشره
عد الى ارضك قد ماث انتهى
سوف لا تلمحه في الدرب يوما .. لن تراه
عد الى ارضك فالموت طيوف ها هنا منهمره
قبل ان تجمد رجلاك وتبقى في سكون المقبره
قبل ان تنهار ..
لا تحلم يوما ان تراه

***

رعشة غامضة .. والصمت يعوي في سكون المقبره
وخطاي العاثره
انني المح الاف الوجوه
ها هنا تمتد حولي .. ستهب الزمجره
وجه امي .. وجه حبي .. ووجوه منكره
وهو يأتي من مدى المجهول .. يأتي في سكوت
شبحا يمشي بلا رجلين ، والدود بعينيه وقلبه
اه .. لا اقوى على السير شاهوي .. ساموت
اينما سرت ارى نفسي وحيدا في سكون المقبره
وارى الموت جدارا اسودا .. سوف اموت
اين امضي .. ؟
انني ضيعت ارضي
صوت غيلان ضعيف في سكون المقبره
انه يبكي بلا جدوى زوال المغفره
انه يصرخ : يا اماه كم قلت سيأتي في الليالي المقمره
اه كم يعشق سعف النخل في ضوء القمر
ولكم يعشق في عينيك غابات السحر
انه لم يأت يا اماه ...
قد مرت ليال مقمره

***

ها هنا ما زلت وحدي في سكون المقبره
اينما سرت ارى تمتد قدامي القبور
وارى الموت جدارا اسودا .. سوف اموت
ثم امضي دون قبر مثله ..
سوف اموت

بغداد — خالد الحلي